

في الشك مقتل الحب ، وما تقتفر المرأة إهانة
لا يسمعها أن تجيب عليها
أما والله لقد ثقل هذا الحال على فإلى أى زمن
سيدوم ؟

فقلت وقد تجمّدت نبراتها بروداً على شفيتها :
— لك أن تضع له حداً فإنه ليرهقنى بقدر
ما يرهقك

— سأضع له حداً فى هذه اللحظة فأنا هاجرك
إلى الأبد ، وللزمان أن يفعل فعله ليبرك
الزمان ! الزمان ! هذه كلمة الوداع ، أيتها
الماشقة الباردة ؟

تذكرى وداعك هذا عند ما يمرّ الزمان فتمتسين
عبثاً عن السعادة والحب والجمال . أين نجيمتك لفقدى
أيتها الماشقة ؟

إن كل ما يمر فى ذهنك الآن هو أن الحب
النيور سيدرك يوماً ما ارتكب من ظلم عند ما ينطح
البرهان بصره فيعلم أى قلب أدمى ، وعندئذ تسح
دموعه خجلاً من نفسه فيفقد لذة العيش ويهجره
وسنّه وتصبح حياته مأتماً ينوح به على أيام كان له
أن يقضيها فرحاً سعيداً ، ولكن لا يخطر لك أن
معشوقة هذا التعس قد تقف مذعورة فى ذلك الحين
من نتائج انتقام الزمان لها فتصرخ قائلة :

— ليتنى فعلت ما كان يجب فعله قبل فوات
الأوان

صدقينى ! إن كبرياء هذه الماشقة لن يأتينا بأية
تعزية إذا كانت أحبت حقيقة

وكنت أود أن أنكلم هادئاً فأفقت زمامى من
يدى ، وبدأت بدورى أذرع الغرفة طويلاً وعرضاً .
فتشتبك نظرات بريجيت بنظراتي اشتباك السيف

من أعماق النفوس



استغفارتى فى الغصير

لأفريدى سوسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الخامس

الفصل الخامس

وترامت نحوى فهبيت أصبح : — إنه لجنون
من يحاول ولو مرة واحدة فى حياته أن يفوز
بالحقيقة من فم امرأة . إنه ليعود بغنيمة الاحتقار
وقد استحقها

إن من يتوصل إلى كشف حقيقة المرأة إنما
هو المتنصت إلى هذيانها فى نومها ، أو المستنطق
خادمتها بقوة الرشوة . وما يعرف حقيقة المرأة إلا
من استحال امرأة ليهتك بدنائتها الأشباح الملقعة
بالظلام ؛ أما الرجل الذى يطلب هذه الحقيقة بكل
صراحة وإخلاص ، الرجل الذى يمد يداً تأنف
الدنيا مستجدياً هذه الحسنه الرائعة فإنه لن يظفر بها
طوال حياته . إن المرأة تحترس من أمثال هذا
الرجل فلا تجيب على سؤاله إلا بهز كتفها ؛ وإذا
ما خانها الجلد انتصبت فى وجهه كمذراء الهيكل غاضبة
لمفاتها وصيانتها . وهل تدافع المرأة إذا شعرت
بالريبة تدور حولها بسوى آية النساء العظمى : إن

— إلى متى تستمر على هذا الضلال ؟ فقد أعجزتني بشكوكك وهي لا تشب حتى تنطفي ولا تنطفئ حتى تشب . أنت تطلب إلى أن أبرر نفسي ، ومن أية جناية يجب عليّ أن أبررها ؟ أمن هجر بلادي أم من غرامي أم من موتي أم من قطع رجائي ؟ إذا أنا تكلفت السرور حسبت سروري إهانة لك . لقد خجيت كل شيء لأرحل معك ، وما أنت سائر معي مرحلة دون أن تلتفت إلى الوراء . فأنا لا أتاقى غير الإهانة ولا أشهد غير الغضب أيان كنت ومهما فعلت

أى بنى الحبيب ! لينك تعلم بأي صقيع قاتل أحس وأية أوجاع تقطع أحشائي عندما أراك تقابل أصدق كلمة تصعد من قلبي إلى لساني بالريبة فلا تصنى إليها إلا هازناً ساخراً . إنك لتحرم نفسك السعادة التي لا سعادة سواها على الأرض وهي الاستسلام في الحب . إنك لتقتل بما تفعل كل عاطفة رقيقة سامية في قلب من يحبك ، وإن يطول بك الأمر حتى يمتنع عليك أن تؤمن إلا بكل خشن كثيف ، فلا يبقى لك من الحب إلا ما تراه بهينك وما تلمسه بيدك

أنت لم ترل فتياً يا أوكثاف ، وأمامك مراحل طويلة في الحياة فستخذ لك خيليات غيري لقد قلت حقاً ، ليست الكبرياء شيئاً معدوداً وما أتوقع منها تعزية وسلواناً ، ومع ذلك فإنني أطلب إلى الله أن يقدر عليك ذرف دمة واحدة تتحدر يوماً كفارة عما أذرفه الآن من دموع ووقفت وهي تقول أيضاً :

— أوجب على أن أعلن ، وعليك أن تعلم ، أنني منذ ستة أشهر لم أنطرح على وسادي ليلة دون أن أكرر قولي لنفسى : إنك لن تشفى من دائك ولا

السيف ، وكنت أراها أماًى كأنها باب منيع سُجنت وراءه فأقتس عن وسيلة أبدل في سبيل امتلاكها حياتي لأحطم أقفال فيها وأغتصب سرها وقالت : ماذا تقصد وما الذى تريد أن أقوله لك ؟

— أريد أن تبوحى لى بما تضررين . أفليس من القساوة أن تكرهينى على تكرار هذا القول ؟

— وأنت .. وأنت .. أين قساوتى من قساوتك ؟ تقول إن من يطمح إلى معرفة الحقيقة مجنون ، أفلا يحق لى أن أرد على هذا بقولى إنها لمجنونة

المرأة التي يخيل لها أن ما ستعلنه من حقيقة سيصدق إن السر الذى تريد معرفته هو أننى أحبك . ذلك

هو سرى . فيالى من عاشقة أضاعت رشدها . إنك تفتش عما يكمن وراء شحوبى ، وشحوبى أنت ألقىت به على نيم عدت تهمة وتستنطقه . يالى من مجنونة ! لقد أردت الانكماش على آلامى لأقف

عليك صبرى واحتمالى . أردت ستر دموعى عنك فإذا أنت تتجسس عليها وتحسبها دلائل جرم خفى .

يالى من مجنونة ! لقد أردت قطع البحار وهجر وطنى لأتبعك وأموت بعيدة عن كل من أحبنى

منظرحة على قلب يرتاب فى إخلاصى . يالى من مجنونة ! لقد كنت أحسب أن للحقيقة من النظرات والنبرات

ما ينم عنها ويدعو إلى احترامها

أواه إن عبراتي تخنق أنفاسى عند ما أفكر فى حالى . لماذا اقتدتنى إلى هذا السبيل أخضع عليه حياتى

إذا كنت ستقف بى هذا الموقف الحائر لا أهتدى فيه إلى نفسى ؟

وانحنى على والدمع يتساقط من أجفانها وهي تصرخ : يالى من مجنونة !

وعادت إلى حديثها :

مالنا لا نعلم ما نفعل وإلى أين نتجه ؟
تعال نستقر على رأى فقد عشنا دائماً سوية فقل
لى ما الذى يدعوك إلى هجرى ؟ إننى لا أطيق أن
أكون ملتصقة بك وبعيدة عنك فى وقت واحد
قلت إن من حق الرجل أن يتمكن من الوثوق
من خليلته وأنت مصيب ، ولكن إذا كان فى الحب
خير للرجل فعلية أن يؤمن به ، وإذا أصابه منه
ضير فن واجب أن يعتبره داء يعمل على شفاء نفسه منه
أفأ ترى أن ما نفعله الآن إنما هو مجازفة فى
ميسر ؟ وما نجازف إلا بقلبنا وحياتنا ، إن ذلك
لأمر قطيع

من أنا لتصب على شكوكك ؟
وتوقفت أمام المرأة ، وهى تكرر قولها :
من أنا ؟ أنظر إلى ما أصبح وجهى عليه
وأردفت توجه الخطاب إلى خيالها :

— أإليك يوجه الارياب أيها المرأة العسة ؟
أحولك تدور الشكوك أيها الوجه الشاحب ؟ أيها
الوجنتان الذابلتان ترويهما محرقات الدموع ، أكلتى
مراحل عذابك يا هذه ! وليأت الفم الذى جفف
رواء جمالك بقلبه لينطبق الآن على عينيك فيغمضهما
انزل إلى الحفرة الرطبة الباردة أيها الجسد الناحل
وقد تراخت قوائمك عن حملك ، لعلهم يصدقونك
وأنت ممدد فى اللحد إذا كانت الشكوك تؤمن بالموت
ويحك أيها الشبح الحزين إلى أى شاطئ من
شواطئ العذاب تتراى معولاً باكياً ؛ أية نار تشب
بين عظامك فتقف واضعاً خططا لرحيل وأسفار
وإحدى رجليك ناشبة فى ثلثة القبر

ميت أيها الشبح وليشهد الله أنك ما أردت
إلا أن تجود بحبك . أية قوة من الوجد آثاروا فى

حيلة لى فيك . أيجب أن تعلم أننى ما نهضت يوماً فى
صباحى دون أن أصمم على محاولة شفائك . وأنتك
ما قلت لى كلمة دون أن أشعر منها أن لا بد من
هجرى ؛ وأنتك ما ضممتنى مرة إلا وأعلن لى قلبى
أنه يفضل الموت على الانسلاخ عنك ، وأننى فى
كل يوم بل فى كل دقيقة حاولت وأنا كالأكرة
بين أمل وخوف أن أتقلب بحبى على أوجاعى أو أتقلب
على حبي بهذه الأوجاع ؛ وأننى ما فتحت لك قلبى
مرة دون أن تنفذ منه بنظرانك الساخرة إلى أعماق
أحشائى ، فإذا أنا أوصدته دونك شعرت أنه ينطوى
على كثر رصده القضاء عليك ولن يناله سواك ؟ أعلّى
أن أحدثك عن ضمة فى وعن هذه الأسرار التى تتجلى
نافهة لعين من لا يجد لها حرمة فى نفسه ؟ أقول
لك إنك فى كل مرة ذهبت من بين يدي غاضباً
كنت أوصد بابى لأنفرد برسائلك الأولى أطلعها
بدموعى ، وإن بين ما أعزفها قطعة تعرفها أنت
مازلت أستقطر من نغماتها الصبر فى غيابك حتى تعود ؟
يا لشقاى ! إننى أعلم الآن ما ستكونه هذه
الدموع التى ذرفتها فى الخفاء وهذا الجنون الذى يتدفق
ضعفاً وحناناً . إننى لا أبكى لأن كل ما تحملت من
عذاب لم يُجد شيئاً

وأردت مقاطعتها فصاحت : دعنى ، دعنى أقول
لك ما لا بد من إعلانه : لماذا ترتاب بى وأنا لك
بكليتى منذ ستة أشهر وعليك وقفت فكبرى وروحى
وجسدى ؟ فما تكون يا ترى هذه الخيانة التى تجسر
على أنهاى بها ؟

إذا كنت قررت السفر إلى سويسرا فما أنا ذى
مستعدة للرحيل معك ، وإذا كنت تظن أن لك
مراحماً على فاستكتبنى الرسالة التى تريد وسلمها
للبريد بيدك

فؤادك وإلى أى حلم قذفوا بخيالك ليجرعوك أخيراً
هذا الزعاف القاتل :

أية جناية ارتكبت حتى تهب هذه الحمى المحرقة
فيك ! وأية ثورة تجتاح روح هذا المرديد الذى
يدفعك برجله إلى الحفرة ومن شففيه تتدفق كلمات
الغرام ؟

إذا أنت بقيت فى الحياة أيتها المرأة فإلى أين
مصيرك ؟ ألم يحن حينك ؟ أما كفالك الدهر
عذاباً ؟

أى برهان يُطلب منك لتصديقك إذا كنت
أنت البرهان الحى تُكذِّبين فى شهادتك على
نفسك . أبقى عذاب لم تقنحيه ؟ فأية تضحية تعدين
لإطفاء أوار هذا الحب الذى لا يرتوى ؟

إنك ستصبحين أضحوكة تفتش عبثاً عن طريق
مهجور تفرع إليه كيلا يشير الناس بأصابعهم
مقهقهين ...

ستفقدن الحياة فتشمعين حتى عن مظهر هذه
الفضيلة المتحطمة ولطالما عزت عليك من قبل .
وسيكون الرجل الذى تلتحفين بالمار من أجله أول
من يمد يده للاقتصاص منك ، فيزجرك لأنك
وقفت الحياة عليه وتحديت المجتمع فى سبيله ، وعندما
يتهامس أصدقاؤك حولك يتفرس فى ملاحظهم
لبرى ما إذا كانت الشفقة قد تجاوزت حدودها
فى نظراتهم . انه ليتهمك بالخيانة إذا امتدت يد
لتصافح يدك عند ما تمرين فى صحراء حياتك على
أحد يمكنه أن يمر بك فيشفق عليك

يا لله ! أتذكرين اليوم الذى وضع الناس فيه
على رأسك إكليلاً من الورود البيضاء ؟ هذا هو
الجبين نفسه الذى ترين بياض تلك الورود ؟ فياليت
هذه اليد التى علقت الإكليل على جدار المعبد قد

تناثرت رماداً قبل سقوط وريقاته الداوية
أى وادى الجليل ! أى عمى المحنية تحت وقر
السنين الراقدة الآن بسلام فى لحدها ! أى أشجار
الريزفون أشجارى ! أى جدي الأبيض الصغير ! أى
ابن مزرعتى ، لقد أحببتمونى جميعاً فهلا ذكركم
الزمان الذى رأيتمونى فيه سعيدة فخورة محترمة ؟
أية قوة ألفت بهذا الغريب ليضلنى سواء
السبيل ؟ من أجاز له أن يمر على طريق قريتى ؟
ويل لك أيتها المرأة ، لماذا تلفت وراءك لأول مرة
اقتنى أترك ؟ لماذا رحبت به كأخ ؟ لماذا فتحت له
بابك ومددت له يدك ؟

أى أوكتاف ! لماذا أحببتنى إذا كان هذا هو
مصيرك ومصيرى ؟

وتداعت إلى الحضيض فهرعت إليها أسندها
بذراعى وحملتها إلى مقعد ارتمت عليه ملقية رأسها
على كتفى وقد حطمها مابذلت من جهد وهى تتدفق
ببيانها الرائع المرير

وتوارت عن عياني الخليفة المهانة فاذا بى
لا أرى مكانها غير طفلة تن من آلامها ...
وأطبقت جفنيها فطوقتها بذراعى وقد سكنت
بينهما لائى

ولما تاب إليها رشدها شكت الضعف ورجتني
بصوت ضعيف حنون أن أتركها لتذهب إلى
مرقدتها وتهادت فى مشيتها فرفعتها على ذراعى
وألقيتها على مهل فوق الفراش وما بقى على وجهها
شئ ينم عن الألم بل رأيتهما تتجرد من آلامها
وتنساها كمن يرتاح من جهد جسدى أضواء . ذلك
لأن طبيعتها الضعيفة الرقيقة أرهاقها المراك
فاستسلمت بمد أن ذهبت بها إلى أبعد ما تحتمل
قواها وبقيت رابطة أناملها على يدي وأنا مكب

الموت لجأت إليه طبيعتها لتجاوز الألم حدوده فيها
إلا برهاناً على صدق بأسى من عودتها إلى ، فإن
سكوته فجأة بعد هذا التدفق في بيانها وهذه العذوبة
التي تجلت على ملاحظتها عند ثواب رشدها ورجوعها
إلى الحياة حزينة مروعة ، وحتى هذه القبة التي
رنت كصدى لقلبي ، كل هذا كان يؤذن بأن الدهر
قد سكن بيننا وأن جبل وصلنا قد انبت إلى الأبد
بين يدي

و كنت أفرّس فيها وهي ممددة في وسن العباء
المرهق فأتيقن بأنني إذا عدت إلى ما سبب هذه
الغيبوبة بمد أن تفيق منها سأدفع بها إلى الرقعة التي
لا انتباهة بعدها ، وسمعت الساعة تدق في سكوت
الليل فشعرت بأن الساعة المنقضية تتوارى طاوية
معها حياتي

وما أردت أن أستنجد بأحد فأوقدت المصباح
الصغير وشخصت إلى إشعاعه الضئيل يذهب بدءاً
في الظلمة كذهاب خطرات أفكارى النائية الحائرة
وما كنت فكرت حتى اليوم في إمكان فقد
بريجيت بالرغم من أنني صممت مائة مرة على هجرها ، ويعلم
كل من ابتلى بالمشق قيمة مثل هذا العزم في ساعات
اليأس أو في دقائق الغضب ، وما ينقطع الحب عن
الوله بمشوقته مادام واثقاً من حبه له . وهكذا كنت
أنا ، ولكنني لأول مرة شعرت بأن قضاء لا يرد
ينتصب مفرقاً بينها وبينى ، فانهدت قواى وأحنت
الرأس قرب سريرها وقد أدركت مدى شقوتي ،
ولكن شعورى المتخدر لم يكن يقيس مدى آلامها
فان روحى كانت تتراجع مرثاة أمام ما يقتحمه
تفكيرى

وقلت في نفسى : هذا ما أردته أنا لك فقد انقطع
كل رجاء في بقائك مع من تحب . أنا لا أريد قتل

على وجهها أقبه وإذا بشفاها ولما نزل ثمة بفراهما
تتلاقى فيلتصق فيها بغمى دون أن نشعر وما عثم
حتى استغرقت في الوسن بعد هذه المصادمة العنيفة
وهي تتوسد صدرى مفترة الثغر كأننا في الليلة
الأولى من ليالينا

الفصل السادس

وكانت بريجيت نائمة وأنا جالس أمام سريرها
صامتاً جامداً كفلاح اجتاحت العاصفة حقله فخطمت
سنايله

وزهبت أسبر أعماق نفسى متلصصاً ماجنت ،
وما كدت أستعرض بعض أعمالى حتى رأيتني تجاه
مات لا سبيل لتلاقي تتأججها

إن من الآلام ما تستنفد طاقة الحس فتشعرك
بشدتها أنها بلغت حدها ، ويمثل هذه الآلام كت
أنوغل في خجلي وتبكيك ضميرى فأرى أن لا بد
لى من توديع بريجيت بعد هذا العراك العنيف ، وبعد
أن كرعت حتى النملة كأس غرامها الحزين ، وقد
توجب على أن أطلق سراحها من هذه الأوصاب إذا
كنت لا أتعهد قتلها

وما كانت هذه المرة الأولى التي تلجأ فيها
بريجيت إلى تأنيبي ، ولكم وجهت إلى جارج الكلام
في ثورة غضبها ، ولكن ما قالت في عرا كنا الأخير
لم يكن صادراً عن كبرياء جريئة بل كان بياناً عن
حقائق تمخض بها القلب طويلاً فانبثقت منه حتى
مرقته تمزيقاً ، وقد رأيت كل ما يحوط بنا من أحوال
وما أبديته من رفضى الرحيل معها يمنع تسرب أى
أمل إلى

فتيقنت أن بريجيت لن تقوى على إنالتي عفوها
حتى ولو غلبت نفسها واستغفرتها إليه ، وما كان
هذا الوسن العميق الذى سادها كأنه نوع من

ذهاب الريح على قيثارة تهز أوتارها المشدودة لتقطعها
وأحسست بالآلام سنتين تخرق فؤادي في لحظة
وعلى أثرها تقبض عليه أوصاب الحاضر وليدة ذلك
الماضي المشؤوم، وما أجد في البيان ما أصف به مثل
هذه الأوجاع، ولعل وصفها بكل جلاء لا يحتاج إلا
لكلمة واحدة، ولكن هذه الكلمة لا يفهمها إلا
من ابتلاه الحب بأدوائه

وكانت بريجيت مستغرقة في نومها وأنا مطبق
أنا على يدها فإذا هي تتلفظ باسمي في بحر أنها
نهضت أتمشى في الغرفة والدموع تنهمر من
عيني فددت ذراعي كأني أحاول القبض على الزمان
الماضي وقد أفلت مني وأنى له أن يعود؟ وصرخت:
أمكن هذا؟ أحق أنني أفقدك وقد امتنع علي أن
أحب سواك؟ أحق أنك مولية إلى الأبد؟ أنت
حياتي، خليلتي أشهرين مني فلن أراك بعد؟

وانجهدت إلى بريجيت أخطبها كأنها تسمعي
فأقول لها: لا.. إنني لن أَرْضَى بهذا القضاء، أي
معنى لهذه الكبرياء؟ أفليس من وسيلة أبذلها
للتكفير عن إهانتني لك؟ ساعديني على وجود هذه
الوسيلة، أنا غفرت لي ألف مرة من قبل؟ إنك
تجيبيني وسوف تخونك قواك إذا أنت أقدمت على
جناية هجرى، لأنك لا تعلمين ولا أعلم أنا ما ستفعل
وما سيحل بنا إذا افترقنا

واستولى على الجنون المطبق المخوف فبدأت
أذهب وأجىء رافعاً صوتي بما أقول دون هدى
مفتشاً هنا وهناك عن آلة جارحة قاتلة حتى ارتيمت
جائياً أمام السرير أضرب بحافته جبيني، وتحركت
بريجيت فتوقفت مدعوراً

وقلت في نفسي: إذا هي أفاقت من نومها الآن
فما أنت فاعل أيها الجنون؟ دعها في نومها إلى

هذه المرأة فلا مناص لي إذن من هجرها، وذلك
ما صممت عليه وسأحققه غداً
وذهبت في تفكيرى على هذا النمط دون أن
أحاكم نفسي على ما جنت ودون أن ألتفت إلى ما ورأى
وإلى ما أُمِى، فنسيت سميث وما وقع من حوادث.
وما كنت لأتميز السبب الذى قادنى إلى هذا الموقف
وأنحصر كل همى في التفكير لأعلم بأية عربة سأغادر
المدينة في الصباح

وصر على زمن طويل وأنا على هذا السكون
الغريب، فكنت كرجل أصيب بطعنة خنجر فلا
يحمس أولاً بغير صقيع النصل حتى إذا سار بضع
خطوات في طريقه يقف مندهشاً وقد زادت عيناه
فيتساءل عما ألم به، وينفتح جرحه دافقاً على مهل
أوائل قطرات دمه، فلا يلبث أن يرى الأرض
تخضب بالأحمر القاني وملاك الموت يقبض عليه
فيهزه الروع فجأة ويسقط مصعوقاً على الحضيض
وكنت كمثل هذا الجريح ساكناً والداهية
الدهاء تكدجني بأنظارها وتتقدم إلى

وبدأت أردد بصوت خافت الخطاب الذى
وجهته بريجيت إلى وأنا أدور في الغرفة معداً
ما كانت الوصيفة تمددها فكنت أنفوس في وجهها
ثم أذهب لألصق جبيني على زجاج النافذة ناظراً إلى
وجه السماء المتجهم بالغيوم

وأنحصر تفكيرى في كلمة واحدة «الرحيل
غداً» وما طال بي الأمر حتى امتنع علي أن أفهم
معنى هذه الكلمة، وانتفضت فجأة وأنا أهتف قائلاً:
يا لله! أى خليلتي التمسة إننى أفقدك لأننى ما عرفت
أن أحبك

وارتعشت أعضائى كأن شخصاً مجهولاً يصيح
بهذه الكلمات في أذنى فذهبت في كل جارحة منى

معانيها فجأة . إنها أُمّى الآن هذه الزهرة المضطربة
تتساقط رماداً وقد أحرقتها غرامها
وأجهشت بالبكاء قائلاً لنفسى : أنظر إليها يا هذا
وفكر في شكوى من لهم أجسام الخليلات وليس لهم
غرامهن . إن خليلتك مولهة بك وقد استسلمت
لك وها أنت ذا تفقدها لأنك ما عرفت كيف تهواها
وتجاوزت أوجاعى حدود احتمالى فنهضت لأرجع
إلى ذرع الغرفة بخطواتى قائلاً :

— أجل ، أنظر إليها يا هذا وتذكر من يقضى
عليهم اللال فيذهبون في الأرض مسرحين أوجاعاً
لا يشاطرهم إياها أحد . أما أنت فقد كان لك من
يقاسمك آلامك فما انفردت بشيء مما احتملت .
تذكر من يسرون في الحياة ولا أم لهم ولا قريب
ولا صديق حتى ولا كلب لهم يؤنسهم ، تذكر من
يفتشون ولا يجدون ومن يكون فيسخر بهم الناس
ومن يحبون فيسكرهون ومن يموتون فلا يذكروهم أحد
أما أنت فأمامك على هذا السرير مخلوقة قد
تكون الطبيعة أعددتها لاستكمالك ، فهيأت روحها
في دوائر الفكر الخفية أختاً لروحك ، وجسدها
في أعماق أسرار المادة أختاً لجسدك ؛ وقد مضت
عليك ستة أشهر لم ينطق فمك بكلمة ولم يخفق قلبك
بنبضة دون أن يجاوبك كلمة من ثغرها ونبضة من
فؤادها . غير أن هذه المرأة التي أنزلها الله عليك
كما نزاله الندى على الأزهار لم تستقر حتى أنزلت
عن تويج قلبك الهاوى . لقد جاءتك هذه المخلوقة
فأبحه لك ذراعها تهيك حياتها أمام وجه السماء
فاذا هي تتبدد كأنها طيف لن يبقى بعد زواله حتى
خيال خياله !

لقد التصقت شفاهاً وطوقت ذراعك عنقها
وضمتك ملائكة الحب الخالد فأصبحتما كائناً واحداً

الصباح فما لك إلا هذه الليلة لتراها
وعدت إلى مقعدى وقد كتم الخوف أنفاسى
وخيل لي أن دى قد تجمد في عروقى مع انجماد
دموعى فلبثت دون حراك يهزنى البرد هزاً فأقول
لنفسى لأحتفظ بسكونى : أنظر إليها ! تفرس بها
فإن يتسنى لك أن تراها بعد الآن .
وملكت أعصابى أخيراً فتناثرت دموع الأسى
بطيئة على خدى . وتوات سورة الغضب فإذا مكانها
سكينة الاشفاق فأسمعنى وهى صرخة إعوال وأنين
تشق الفضاء ، فأنحيت على السرير أحرق في برجيحت
كأن ملاكى الصالح يهيب بي لأول مرة إلى استطباع
ملاحمها العزيزة على صفحات فؤادى

ها هى ذى أُمّى فيا لشدة شجوبها وقد أحاطت
بأهدابها الطويلة هالة زرقاء ! ولما يزل رشاش الدمع
عالقاً بأطرافها وهذه قامتها المشوقة منطرحة على
الفراش وقد تقوّست كأنها حتى في رقابها تنوء
تحت وقر ثقيل ، وهذا خدها الأسيل تمتد صفرة
دكناء وقد لاقته على الوسادة ككفها الصغيرة
وممصعها النجيل ، وهذا جبينها وقد ارتسمت عليه
آثار إكليل الأشواق تاج المتألين الصابرين
وإذا بي وأنا مستغرق فى تأملى أرى أُمّى ذلك
الكوخ حيث التقيت بها منذ ستة أشهر صبية مرحة
تتمتع بالحرية ولا تبالى بشيء

وبلى ! ما الذى فعلته بذلك الصبا وتلك الخلال ؟
وعادت الأغنية القديمة النفسية تتردد على مسمى :
كنت فى روض دلالى زهرة فيها ضرام
أحرق المشق جمالى هكذا يقضى الغرام
بهذا كانت تنغنى خليلتى الأولى ، وما كنت
من قبل لأدرك معنى هذا الشعر الساذج كما أدركه
الآن ، فبدأت أترنم به كمن يحفظ ألفاظاً تنجلي له

أماى فكذبا عينيّ فيا أرى ومددت يدي متلماً
جسدها لأتحقق أننى لست فى حلم وأن هذا الجسد
ليس خيالاً

ولحت وجهى فى المرأة فاذا به يحرق فى مستغرباً
كأنه يستنكر هذا الإنسان الذى تتجلى ملائحته
فى ملامحه

من هو هذا الماتى الذى يحرق فى فى ويتخذ
يدى آله للتعذيب ؟

أهذا الرجل هو من كانت تدعوه أى باسم
أوكتاف ؟ أهذا هو من كان يتراى لى بين مروج
الغاب عند ما كنت أنحنى وأنا فى الخامسة عشرة
من ربيع حياتى فوق جداوله وهى تنساب كاللجين
صافية كصفاء فؤادى ؟

وأطبقت جفونى عائداً إلى أيام طفولتى فاذا
التذكار يحترق قلبى بألف شمع كأن الشمس تمزق
خيوطها حالكات الغيوم

وصحت : لا . إن من ارتكب هذا الاثم ليس
أنا وليس كل ما يتراى لى فى هذه الغرفة سوى
أضغاث أحلام

وعدت أستعرض تفتّح قلبى للحياة فيلوح لى
على صفحات تذكارى متسول هرم كان يجلس أمام
باب المزرعة وكنت أحمل إليه بعد الغداء فضلات
مائدتنا ، فأراه كأنه الآن أماى مقوس الظهر ماداً
يديه الناحلتين ليباركنى وهو يتسم

وشمرت بفتة بهوب نسبات الفجر على صدغى

وبتساقط قطرات كأنها أنداء الصباح على روحى

فتحت عيني فاذا الحقيقة تنطح بصرى وقد

أناها اشمع المصباح الضئيل

وعدت أخطب نفسى قائلاً :

أعتقد أنك برىء من الاثم يا هذا ؟ أتحسب

برابطة الدم وجامع الشهوة ، ولكنكما حتى فى
ساعات هذا العناق الموحد كتما منفصلين يبتعد
أحدكما عن الآخر ابتعاد منفين بينهما ما بين مشرق
الشمس ومغربها

أنظر إليها يا هذا ولكن احترس من إبداء أية
حركة ، لم يبق لك إلا هذه الليلة لتراها فاختنق
إعواالك كيلا تنبها من رقادها

وساورتنى أفكار مظلمة بدأت تحتل دماغى على
مهل فشعرت بقوة خفية تدفعنى إلى سبر الأعماق
فى نفسى

أفيكون قضاء العناية فى أن أرتكب الشر فى
حين أن ضميرى يشعرنى حتى فى غمرات جنونى
أننى صالح وعجب للخير ؟

أأرتكب الشر كأن ورأى قوة لائى تدفعنى
إلى الأغوار فى حين أشعر بقوة أخرى تحذرنى
من الانزلاق على مهاوئها ؟

لماذا أرتكب الشر وفى صوت يهتف مستنكراً
ماتى ؟ حتى ولو تطلخت يداى بدماء الجريمة أسمع
صرخة من أعماق فؤادى تعلن لى أننى لست مجرمًا
وأن الفاعل ليس ذاتى بل هو شخص آخر كامن
فى ولم يثبت منى ، هو الروح الشرير المنفصل
قضى على

لقد مرت بى ستة أشهر وأنا أذهب على سبيل
الأذية فما اجتزت يوماً دون أن أعمل على الإضرار
كافراً بنفسى ونصب عيني نتائج فعلتى

فهل الرجل الذى أحب بريجت ليحرقها
ويقسو عليها فهجرها تارة ليعود إليها تارة أخرى
مالتاً روحها ارتباعاً دائراً حولها بالشكوك ليطرحها
أخيراً على فراش الضنى ، كان رجلاً آخر سوى ؟
وضربت بكفى على موضع قلبى ناظراً إليها ممددة

وتذهب مورداً الأحاديث عن أيام صباح فتقطع
نفسك بأن على الله أن يغفر لك وإنك مُكرهٌ غير
مختار في شقائك ، ثم تتحول إلى الأرق في لياليك
فتناجيه بمثل ماتناجي به نفسك كيلا يسلبك
راحتك حتى الصباح

ولكن من يدري ! إنك لا تزال في مستقبل
العمر ولسوف تستسلم لقلبك فتغلك كبرياؤك .
ها أنت ذا الآن أمام أول طلل من آثار الدمار التي
ستبقها حيث تمر . وإذا ما ماتت برحمت غداً
فإنك ترسل دموعك على نمشها لتذهب بعد ذلك
سائحاً في الأرض ، ولعلك تتوجه إلى إيطاليا فتلتف
بردائك كانكليزي أصيب بداء الملل واليأس من
الحياة إلى أن تصبح يوماً في أحد الفنادق وأنت
تحتسى كأساً بعد كأس فتقول لقد سكت صوت
ضميري وحان زمن السلوان فلا رجمن إلى الحياة
إنك تأخرت كثيراً حتى ذرفت الدمع يا هذا
فكن على حذر ! سيأتيك يوم تنقطع عن البكاء فيه
من يدري ! لقد يدور بك من الناس من
يهزأون بالأوجاع التي تتوهم الشعور بها ؟ وتمر بك
امرأة قيل لها إنك تبكي خلية خطفها الموت فترسل
إليك بسملة الإشفاق فتستنبت فجيعتك ما يغذى
غرورك

أما يكون نوسمك في ليلة من الليالي عندما يصبح
ما ترتعش له الآن ومالا تجسر على التحديق فيه
صفحة مطوية في ماضي الزمان أن تتراخي على مقعدك
أمام مائدة أنس وطرب لتقص على رفاقك فحشاءك
والابتسام على شفيتك ما رآته عيناك وهما دامتان
هكذا يكرع الناس كؤوس المار وذلك هو
سبيل الحياة . لقد كنت حالمًا بالأمس ففدت
ضعيفاً وهذا الضعف سيقودك إلى الشر غداً .

(تمة الكتاب في العدد القادم) فليكس فارس

نفسك بريئاً لأنك تبكي ؟ أيها المتلمذ للحياة منذ
أمس وقد أفسدته الحياة ، إن ما تراه في تقديرك
شهادة من ضميرك لك قد لا يكون إلا ندماً وتبكيئاً
وأى قاتل لا يكتفه ضميره ؟

أفأنت واثق من أن صراخ الألم المتعالى من
صميم فضيلتك ليس آخر حشرة تدفع بها في
احتقارها ؟

أيها الشقي ، لا تحسبن هذا الصخب المتعالى من
أعماق قوادك أنيناً وإعوالاً ، فقد لا يكون ما تسمعه
إلا صرخة الطيور الجوارح تنبئها العواصف بتحطم
سفينة بين نائرات الأمواج

من أخبرك بما كانت عليه طفولة من يموتون
مخضبين بالدماء ؟ أما كان لهؤلاء أيضاً أيام بر وصلاح ؟
إنهم يمرون مثلك أيديهم على جباههم ليتذكروها
لقد ارتكبت الشر وما تندم على ما فعلت أما
أحرقت الندامة قلب نبيرون بعد أن قتل أمه ؟

من قال لك يا ترى إن الدموع تغسل الآثام ؟
وهب أن الدموع تطهر وأن قلباً من روحك لن
يستسلم للشر أبداً ، فما حيلتك بالقسم الآخر الذي
استغرق فيه ؟ إنك ستلتبس بيسراك الجراح التي
فتحتها يمينك وستنسج من فضيلتك كفنًا تدرج فيه
جرائمك . إنك لتفعل ما فعله بريتوس عندما أرسل
طعمته النجلاء وعاد ينقش على نصله ما تشدق به
أفلاطون

وإذا ما فتح أحدٌ لك ذراعيه فانك لترسل إلى
أعماق قلبه مثل هذا النصل وقد نُقشت آيات النوم
عليه ، وهكذا ستقود إلى المدافن بقايا عواطفك وتنثر
فوقها أزهار إشفاقات المقيم هاتفاً بمن يشهدون
ما تفعل : « ما حيلتي ؟ لقد علمني الناس القتل فلا
يمزب عنكم أنني أذرف الدمع لما قضى عليّ لأن
الله قد خلقني أفضل مني الآن »